ابن الأبار الكاتب

كانت الكتابة ـ كتابة الرسائل الديوانية والاخوانية ـ مهنة ابن الابار، فقد قام بهذه المهنة لعدد من الولاة بالاندلس وافريقيا، وهو قد امضى معظم حياته كاتبا منشئا وكاتبا مؤلفا، ينشىء الرسائل انشاء باسلوبه الخاص احيانا، ويجمع ويصنف ما كتبه غيره ويؤلف بينه ليخرج منه كتابا أو رسالة تاريخية أو أدبية احيانا أخرى. وكان ابن الابار الى مزاولته مهنة الكتابة يعانى هواية الشعر. وفى شعره، السمين والغث. وسنفرد لشعره بابا خاصا نعرض فيه نماذج له، وندرس بعضه وننقده ونقدره.

اما كتابة ابن الابار فيمكن تقسيمها الى ضربين: كتابة تاليف الكتب، وكتابة الرسائل. وقد عرضنا للضرب الاول

منهما عندما عرضنا كتبه ومؤلفاته. أما الضرب الثانى من الكتابة الانشائية فيمكن نقده وتقديره بعد عرض نماذج له. ومن سوء الحظ أن لم يجمع لنا ابن الابار، أو لم يخلف وراءه، مجموعة من رسائله الديوانية والخاصة، تلك التى كتبها فى الاندلس وافريقيا. ولكنا بالرغم من هذا نجد بعضها منشورا منثورا فى كتب الادب والتاريخ، ومنها تلك الرسالة الشهيرة التى بعث بها الى القاضى (1) ابى المطرف ابن عميرة المخزومى قاضى شاطبة، ردا على رسالة هذا القاضى التى يذكر فيها أخذ الروم

---

(1) هو ابو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومى . ولد فى رمضان سنة 582 (نومبر سنة 1186) - فى جزيرة شقر - وقيل فى بلنسية سنة 580 (1184 م) ونشأ فى بلنسية واشتهر بمعرفة علوم التاريخ ثم صار قاضى شاطبة . وبعد ان سقطت بلنسية على يد Jaime el Batallador هاجر الى مراكش ، وصار كاتبا لعبد الواحد الرشيد بن ابى الوليد ادريس المأمون ، السلطان الموحدى . ثم عين قاضيا لمدينة مليانة وبعدها لمدينة مكناس . ولم ترقه الحياة فى مراكش فذهب الى تونس ودخل فى خدمة السلطان المستنصر الحفصى . ومات بتونس سنة 648 ، وقيل سنة 656 او سنة 658 . وهو من معاصرى ابن الابار . وكان - الى وظيفة القضاء - كاتبا اديبا يقرض الشعر ، انظر : الروض المعطار تحت اسم « شقر» والاحاطة صفحة 60 - 65 من الجزء الاول .

مدينة بلنسية، وها هى ذى :

سيدى وان وجم لها (1) النادى ، وجمجم بها المنادى . ذلك اصغرها عن كبره فى المعارف الاعلام ، وصدرها يوغر صدور الصحائف والاقلام. وأعيذ (2) ريحانة قريش أن تروح من حفيظتها فى جيش . قد هابتها مغاوير كل حي، واجابتها الغطاريف (2) من قصي. تدلف بين يديها كتيبة خالد، وتحلف لا قدحت نار الهيجاء بزند صالد. أو تنصف من غامطها ، وتقذف به وسط غطامطها ، لاجرم أنى من جريمتى حذر ، وعماوضحت به قيمتى للمجد معتذر، الا ان يصوح من الروض نبته وجناته ، ويصرح بالقبول حلمه وأناته الحديث عن القديم شجون ، والشأن بتقاضى الغريم شئون . فلا غرو أن أطارحه اياه ، وأفاتحه الامل فى لقياه. ومن لى بمقالة مستقلة أو اخالة غير مخلة ، أبت البلاغة الا عمادها، ومع ذلك فسأنبى عما دهى.

درجت اللدات والاتراب، وخرجت الروم بنا الى حيث

---

(1) الضمير هنا يعود على السيادة.

(2) الغطاريف جمع غطريف وهو السيد.

الاعراب ، أيام دفعنا لاعظم الاخطار ، وفجعنا بالاوطان والاوطار . فالام نذارى برح الالم، وحتام نسارى النجم فى الظلم . جمع اوصاب ما له من انفضاض ، ومضض اغتراب شذ عن ابن مضاض . فلو سمع الاول بهذا الحادث ما ضرب المثل بالحارث ، يا لله من جلاء ليس به يدان، وتناء قلما يسفر عن تدان. وعد الجد العاثر لقاءه فأنجز، ورام الجلد الصابر انقضاءه فأعجز. هؤلاء الاخوان مكثهم لا يمتع به أوان، وبينهم كنبت الارض ألوان، بين هائم بالسرى، ونائم فى الثرى. من كل صنديد بطل، أو منطيق غير ذى خطأ ولا (1) خطل قامت عليه النوادب لما قعدت به النوائب ، وهجمت بيوتها لغناه الجماجم والذوائب ، واما الاوطان المحبب عهدها بحكم الشباب، المشبب فيها بمحاسن الاحباب، فقد ودعنا معاهدها وداع الابد، واخنى عليها الذى اخنى على لبد ، أسلمها الاسلام وانتظمها الانتشار والاصطلام ، حين وقعت أنسرها الطائرة ، وطامت أنحسها الغائرة ، فغلب على الجذل الحزن ، وذهب مع المسكن السكن .

---

(1) الخطل فساد الرأى .

كزعزع الريح صك الدوح عاصفها فلم يدع من جنى فيها ولا غصن

واها وواها يموت الصبر بينهما موت المحامد بين البخل والجبن

أين بلنسة ومغانيها ، وأغاريد ورقها وأغانيها ؟ أين حلى رصافتها وجسرها ، ومنزلا عطائها ونصرها ؟ أين أفياؤها تندى غضارة ، وركاؤها تبدو من خضارة ؟ أين جداولها الطفاحة وخمائلها ، أين جنائبها النفاحة وشمائلها ؟ شد ما عطل من قلائد أزهارها نحرها ، وخامت شعشانية ضحاها بحيرتها وبحرها . فأية حيلة لا حيلة فى صرفها مع صرف الزمان ، وهل كانت حتى بانت الا رونق الحق وبشاشة الايمان ؟ ثم لم يلبث داء عقرها ان دب الى جزيرة شقرها ، فأمر عذبها النمير ، وذوى غضها النضير ، وخرست حمائم أدواحها ، وركدت نواسم أرواحها ، ومع ذلك اقتحمت دانية ، فنزحت قطوفها وهى دانية ، وبالشاطبة وبطحائها ، من حيف الايام وانحائها والهفاه ثم لهفاه ، على تدمير وتلاعها ، وجيان وقلاعها ، وقرطبة ونواديها ، وحمص وواديها . كلها رعى كلؤها ، ووهن بالتفريق والتمزيق ملؤها . عض الحصار أكثرها ، وطمس الكفر عينها وأثرها . وتلك

البيرة [1] بصدد البوار ، دربة فى مثل حلقة السوار . ولا مرية فى المرية وخفضها على الجوار ، الى بنيات لواحق بالامهات ، ونواطق بها لاول ناطق بهات . ما هذا النفخ بالمعمور ؟ أهو النفخ فى الصور ؟ أم النفر عاريا من الحج المبرور ؟ وما لاندلس أصيبت بأشرافها ، ونقصت من أطرافها ؟ قوض عن صوامعها الأذان ، وصمت بالنواقيس فيها الآذان . أجنت ما لم تجن الاصقاع ؟ أعقت الحق فحاق بها الايقاع ؟ كلا بل دانت للسنة ، وكانت من البدع فى أحصن جنة . هذه المروانية مع اشتداد اركانها ، وامتداد سلطانها ، ألقت حب آل النبوة فى حبات القلوب ، وألوت ما ظفرت من خلة ولا قلة بمطلوب ، الى المرابطة بأقصى الثغور والمحافظة على معالى الامور ، والركون الى الهضبة المنيعة ، والروضة المريعة ، من معاداة الشيعة ، وموالاة الشريعة . فليت شعرى بم استوثق تمحيصها ، ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها ؟ اللهم غفرا طالما ضد ضجر ، ومن

---

(1) مدينة بشرقى الاندلس.

الانباء ما فيه مزدجر . جرى بما لم تقدره المقدور ، فما عسى ان ينفث به المصدور ؟ وربنا الحكيم العليم ، فحسبنا التفويض له والتسليم . وبا عجبا لبنى الاصفر ، انسيت مرج الصفر ؟ ورميها يوم اليرموك بكل أغلب غضنفر ؟ دع ذا فالعهد به بعيد ، ومن اتعظ بغيره فهو سعيد . هلا تذكرت العامرية وغزواتها ، وهابت العامرية وهبواتها ؟ أما الجزيرة بخيلها محدقة ، وبأحاديث فتحها مصدقة . هذا الوقت المرتقب ، والزمان الذى زجيت له الشهور والحقب . وهذه الامامة أيدها الله تعالى هى المنقذة من أسرها ، والمنفذة لسلطانها مراسم نصرها ، فيناح الاخذ بالثار ، ويزاح عن الجنة أهل النار ، ويعلم الكافر لمن عقبى الدار . حاورت سيدى بمثار الفاجىء الفاجع ، وحاولت برء الجوى من جوابه بالعلاج الناجع . وبودى لو تقع فى الارجاء مصاقبة فترفع من الازراء معاقبة . أليس لديه أسواء المكلوم ، وتدارك المظلوم ؟ وبيديه أزمة المنثور والمنظوم . خيال يختر فى اقناع أياد ، وصوغ ما لم يخطر على قلب زيد ولا بخاطر زياد . بست الجبال الطوامح لما بست ، وأبو فتحها ، وغيضت البحار

الطوافح فمن يعبأ بالركايا ومنحها؟ اين ابو الفضل بن العميد من العماد الفاضل، وصمصامة عمرو من قلمه الفاضل. هذا مدرهها الذى فعل الافاعيل، وأحمدها الذى سما على ابراهيم وهما اماما الصناعة، وهماما البراعة واليراعة، بهما فخر من نطق بالضاد، وبسببهما حسدت الحروف الصاد، لكن دفعهم بالبراح، وأعرى مدرعهم من المراح، وشرف دونهم ضعيف القصب على صم الرماح. ابقاه الله تعالى وبيانه صادق الانواء، وزمانه كاذب الاسواء، ولا زال مكانه مجاوزاً ذؤابة الجوزاء، واحسانه مكافأ بأحسن الجزاء [1]، والسلام.

وقد يكون من المناسب هنا ان نذكر الرسالة التى بعث بها القاضى ابو المطرف ابن عميرة، الى ابن الابار، والتى رد عليها ابن الابار بالرسالة السابقة، جاء فى نفح الطيب صفحة 506 من الجزء الثانى ما يأتى:

رسالة خاطب بها الكاتب البارع القاضى ابو المطرف ابن عميرة المخزومى الشيخ الحافظ ابا عبد الله بن الابار يذكر له

(1) واضح ما فى هذه الرسالة من الصناعة اللفظية والمحسنات المتكلفة. =

أخذ العدو مدينة بلنسية وهى :

ألا فيئة للدهر تدنو بمن نأى ... وبقيا يرى منها خلاف الذى رأى

ويامن عذيرى منه يغدر من أوى ... اليه ولايدرى سوى خلف من وأى(1)

ذخائر ما فى البر والبحر صيده ... فلا لؤلؤا بقى عليه ولا وأى

ايها الاخ الذى دهش ناظرى لكتابه، بعد ان أدهش خاطرى من اغترابه . وسرنى من بشره ايماض، بعد ان ساءنى من جهته اعراض جرت على ذكره الصلة فقوم قدح نبعتها، وروى اكناف قلعتها، واحدث ذكراً من عهدنا الماضى فنقط وجه عروسه، وشمشم خمر كؤوسه . وسقى بماء الشبيبة ثراه،

= ولقد كان اسلوب ابن الابار كغيره من كتاب الاندلس والمغرب صدى لاسلوب الكتاب فى المشرق، او محاكاة له. فلقد كان القاضى الفاضل (توفى سنة 596 هـ) على رأس الكتاب الذين عنوا بالسجع والجناس والكناية ، وكان من كتاب الرسائل الذين اشتهروا بهذه الطريقة فى زخرفة الكلام . والمبالغة فى زركشته حتى صارت طريقته تعرف «بالطريقة الفاضلية» تحداها وحاكاها من جاء بعده من المنشئين . من ذلك ما ورد فى كتاب « الفتح القدسى » لعماد الدين الاصفهانى ، الذى ارخ فيه فتح صلاح الدين بيت المقدس : « ثم رحل من عسقلان للقدس طالبا، وبالعزم غالبا ، وللنصر مصاحبا، ولذيل العز ساحبا. قد اصحب ريض مناه، واخصب روض غناه ، واصبح رائع الرجاء . . . . . الخ »

(1) وأى، يئى : وعد يعد . وضمير منه عائد على الدهر.

وأبرز مثال مرآة الغريبة مرآه . فبورك فيه أحوذيا [1] وصل رحمه ، وكسا منظره من البهجة ما كان حرمه . وحيا الله تعالى منه وليا على سالف عهدى تمادى ، وبشمار ودي نادى . وبين والاحسان شيمته ، وأبان والبيان لاتنجاب عنه ديمته . ولا تغلو بغير قلمه قيمته . واعتذر عن كلمة تمنى تبديلها ، ودعوة ذكر وجوم النادى لها . ثم ارسلها ترجف بوادرها من خيفة وتوغر زعم صدور قلم وصحيفة . وتندر من ريحانة قريش ان تمنعه عرفها ، وتحدق اليه طرفها . واتقى غارة على غرة ، من الناجى برأس طمرة . ولم يأمن هجران المهاجر بعد وصله ، وعكر عكرمة المغطى بحلمه على ابى جهله . وعند ذكر كتيبة خالد أحجم ، وذكر يوم احاط به فارس فاستلجم ، فاعتذر عما قال ، واضمر الحذر الا ان يقال . فمهلا ايها الموفى على علمه ، النافث بسحر قلمه . اتظن منزلتك فى البلاغة ومهيعها لاحب ، ومنزعها بالعقول لاعب ، تسفل وقد ترفعت ، او تخفى وان تلفعت . عرفناك ياسودة ، وشهرت حلة عطارد الملاحة والجودة .

---

(1) الاحوذى : الشهم النبيل

فلم حين تهيب الأخ الاوحد من قصى غطارفها، ولو استثار من حفائظها تالدها وطارفها . لم يذكر يدقومه عند ابيها ، وقد رام خطة اشرف على تأبيها ، حين اهاب بكم لمهمه ، ودعا منكم أخاه لامه . ولولا ذلك لما خلا له وجه الكعبة ، ولا خلص من تلك المضايق الصعبة . وبأن اعرتموه نجدتكم الموصوفة، غلب على ما كان بأيدى صوفة . فكيف نجحد اليد عند عمنا ، او نشحذ أسنة الالسنة لذمنا . او كيف نلقاكم بحدنا ، وابوكم بكر معدنا، وماتيا منكم الى سبأ بن يشجب ، وان اطلنا فيه التعجب بالذى يقطع ارحامنا ويمنع اشتباكنا والتحامنا ، بعد ان شددنا فعالنا بفعالكم ، ورأينا اقدامنا فى نعالكم . ولو شئتم توعدتم بأسود سؤددكم عند الاقدام ، والحاح الحافكم فى ضرب الهام ، لكن نقول : ان قومنا الكرام ، ولو شاءوا كان لنا فيكم شره وعرام، وأعود من حيث بدأ الاخ الذى أبثه شوقى واتطعم حلاوة عشرته باقية فى حاسة ذوقى . طارحنى حديث مورد جف ، وقطين خف ، فيا لله للأتراب درجوا ، وأصحاب عن الاوطان خرجوا ، قصت الاجنحة وقيل طيروا .

وانما هو القتل او الاسر او تسيروا . وتفرقوا ايدى سبا وانتشروا ملء الوهاد والربا . ففى كل جانب عويل وزفرة ، وبكل صدر غليل و حسرة . ولكل عين عبرة لا ترقأ من اجلها عبرة . داء خامر بلادنا حين أتاها ، وما زال بها حتى سجى على موتاها . وشجا ليومها الاطول كهلها وفتاها . وانذر بها فى القوم بحران أنيجه ، يوم أثاروا أسدها المهيجة . فكانت تلك الحطمة طل الشؤبوب ، وباكورة البلاء المصبوب . اثكلتنا اخواننا ابكانا نعيهم ، ولله احوذيهم وألمعيهم . ذلك ابو ربيعنا ، وشيخ جميعنا ، سعد بشهادة يومه ولم ير ما يسوءه فى اهله وقومه . وبعد ذلك اخذ من الام بالمخنق وهى بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق . وما لبث ان أخرس من مسجدها لسان الأذان ، واخرج من جسدها روح الايمان . برح الخفاء ، وقيل على آثار من ذهب العفاء . وانعطفت النوائب مفردة ومركبة كما تعطف الفاء ، فأودت الخفة والحصافة ، وذهب الجسر والرصافة . ومزقت الحلة والشملة واوحشت الجرف والرحلة . ونزلت بالحارة وقعة الحرة ، وحصلت الكنيسة من

جآذرها وظبائها على طول الحسرة . فاين تلك الخمائل ونضرتها والجداول وخضرتها، والاندية وأرجها، والاودية ومنعرجها . والنواسم وهبوب مبتلها والأصائل وشحوب ممتلها، دار ضحكت الشمس ببحرها وبحيرتها، وأزهار ترى من ادمع الطل فى اعينها ترددها وحيرتها . ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها وشقرها ، حتى احاطت بجزيرة شقرها . فآها لمسقط الرأس هوى نجمه ونفادح الخطب سرى كلمه ، وبالجنة اجرى الله تعالى النهر تحتها، وروضة اجاد ابو اسحاق نعتها . وانما كانت داره التى فيها دب ، وعلى اوصاف محاسنها أكب. وفيها اتته منيته كما شاء واحب. ولم تعدم بعده محبين قشيبهم اليها ساقوه ، ودمعهم عليها أراقوه . وقد اثبت من النظم ما يليق لهذا الموضع ، وان لم يكن له ذلك الموقع .

أقلوا ملامى ، اوفقولوا واكثروا ملومكم عما به ليس يقصر

وكان الامير أبو عبد الله [1] المستنصر - سلطان تونس - قد أدخل على الحضرة اصلاحات معمارية ، واقام بها متنزهات

(1) تولى ثالث رجب سنة 647 بعد وفاة والده ابى زكريا

ومصيداً [1] على بسيط من الارض تعيش فيه أسراب الوحش عيشة طبيعية ولا تراع ، وبنى قصورا فخمة وصروحا مرتفعة الجدران ، وانخذ بخارج حضرته البستان المعروف « بأبى فهر » يشتمل على جنات معروشات وغير معروشات ، وجلب المياه الى هذه الجنات والى تونس فى قناة قديمة [2] كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة ، تسلك بطن الارض فى أماكن ، وتركب البناء العالى ذا الهياكل الهائلة والقسي القائمة على الارجل الضخمة فى أخرى ، فعطف هذه القناة الى هذا البستان ، وأحاطها حائطا وصل ما بينهما [3] ، وبذلك احضر المياه الى بركة عظيمة فى « أبى فهر » ، ومنها كانت تسير المياه الى المسجد الكبير . وبهذا سهل على المصلين الحصول على الماء ، وعدوا عمل الامير

---

(1) فى سنة 650 هـ.

(2) هى قناة كانت تستعمل لجلب المياه الى تونس من خارجها فى عهد الرومان وتسمى Aqueduct ، وكان قد بطل استعمالها. ولا تزال آثار هذه القناه قائمة حتى الان خارج المدينة وممتدة اليها (انظر صفحة 282 الجزء الثالث، تاريخ ابن خلدون)

(3) وقد سجل ابو الحسن حازم بن محمد بن حازم القرطاجنى هذا العمل فى قصيدة طويلة (راجع صفحة 204 ج 2 من ازهار الرياض).

عملا عظيما مبرورا .

وقد سجل ابن الابار وصول الماء الى تونس فى هذه القناة، فى رسالة ادبية خالدة . نوردها هنا نقلا عن كتاب ازهار الرياض فى اخبار عياض [1]. قال مخاطبا السلطان المستنصر:

الحمد لله حمداً لا نقلله هذا الزمان الذى كنا نؤمله

« بلدة طيبة ورب غفور » ، ودولة مباركة لمحاسنها سفور .

الى آل ابى حفص آلو ، فهل جالت النجوم حيث جالوا، او نالت الملوك بعض ما نالوا ؟ ملك يشمل الاقبال ، وعز يقلقل الجبال ، وكرم صريح الانتماء فى النماء . وشرف سمت ذوائبه على السماء ، الى عدل واحسان ، هما قوام نوع الانسان . مع رفق واسجاح، ضمنا كل فوز ونجاح . فقد اضاءت الظلماء أنواراً ، وفاضت البركات انجاداً وأغواراً . أليس العام ربيعا ، والعالم جميعا، والسعود طالعة ، والعصور طائعة ؟ مصانع الاعمال تحليها ، وعلى معصمات الكمال تجليها .

فمن ذا - أيها المولى - يجاريك الى مدى ، أو يباريك

---

(1) صفحة 211 من الجزء الثالث .

فى اقدام صادق وندى ، وآياتك للابصار هدى ، وحياتك للكفار ردى ؟ بسيرتك عدل الدهر وما جار ، ولولا نور عزمك ما أنار. لقد حسنت بك الاوقات حتى كأنك فى فم الزمان ابتسام . اعرقت فى المجد والعليا ، وعنيت بالدين فعنت لك الدنيا . اى عنيد أو عميد ما القى باليد ، واتقى فى اليوم عاقبة الغد ، اصفاقا [1] على التعوض بصفحك واسعادك ، واشفاقا من التعرض لصفاحك وصادك؟ تعمر بالحسنات آناءك ، وتتبع فى القربات آباءك. بانيا كما [2] بنوا ، بل زائدا على ما اتوا ، وباديا من حيث انتهوا .

أناس من التوحيد صيغت نفوسهم فزرهم تر التوحيد شخصا مركبا

ومن ساكبات المزن فيض أكفهم فردهم ترد ماء الغمام واعذبا

انجاد اجواد ، فى الحباء بحار ، وفى الحبا اطواد. تقيل ابو زكريا

---

(1) اعتمادا .

(2) يشير الى ما بناه أبوه ابو زكريا فى الجنوب الغربى من تونس وهو جامع السلطان الذى يشير اليه ابن بطوطة ، وبنى القصبة وبجوارها مسجد لصلاة الخاصة . وكون مكتبة جميلة ، وأسس المدارس .

نهج ابى محمد ، وأبدا جميعاً بابى حفص المؤيد .

نسب كان عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا

اولئك صفوة الائمة ، وحفظة الاذمة ، والقائمون دون الامة ، فى الحوادث المدلهمة. وهذه الدولة المحمدية ، الخالدة بمكانها الدعوة المهدية . اليها انتهى الراشد ، وعليها التفت المحامد ، وبها اعتزت العناصر والمحامد. ومن خصائصها انفعال الوجود ، ومن مراسمها الايثار بالموجود ، والبدار الى اغاثة الملهوف واعانة المنجود ، ما برح للخيرات ايضاعها [1] وخبها ، وبالصالحات غرامها وحبها ، حتى لقد فهمت اسرارها ، واودعت انوارها ، وكلفت او كفلت انشاءها واظهارها ، يمينا ان يمين الحق بها طولى ، وللاخرة خير لها من الاولى .

بمولانا ـ ايده الله ـ عز مكانها ، وخلدت سديدة آثارها ، شديدة اركانها . لاجرم انه الطاهر كالماء الذى جلبه للطهارة ، والظاهر ولاء ولواء فى مصعد الخلافة ، ومقعد الامارة. بالسعادة الابدية وجده وكلفه . وما همه الا تجاوز ما اسلفه سلفه .

---

(1) الايضاع والخب نوعان من السير اولهما بطئ والثانى سريع .

فجر من الارض ينبوعا ، وجدد للجدوى رسوما عافية وربوعا. ساحته الحرم ، وهو زمزم قصاده وحجاجه . وراحته البحر الخضم غير طعمه وارتجاجه [1] . ما اظهره خلالا، وابهره جلالا (هكذا هكذا والا فلا لا [2]) . غابت كماة المعارك وشهد ، ونامت ولاة الممالك وسهد . فمتى قسطوا أقسط ، واذا غوروا انبط . ولذلك ما ابطل عمله اعمالهم واحبط . غلبهم على صفتى الندى والباس . وسلبهم منقبتى حمزة والعباس [3].

فلا غرو أن من أمن ووقى ، ثم لما كسا وأطعم سعى ، آية نعمى وفت بالميعاد، وحسنى مثلها يعود للمعاد . واتت بماء معين قد اصبح غورا ، وملأت ما بين لابتيها حنانا ترف ظلا وترق نورا . فيا بشرى لتونس اخصب جديبها ، وأحسن وصف الروض والغدير اديبها. وطالما اطلعت صحراء بل بغضاء.

---

(1) احتياط من ابن الابار ليستثنى من خصائص البحر ما ليس مرغوبا فيه من الطعم والارتجاج .

(2) يقتبس من البيت :

ذى المعالى فليعلون من تعالى هكذا هكذا والا فلا لا.

(3) عما النبى صلى الله عليه وسلم وكانا مشهورين بالسماحة والكرم .

فكم الامارة قبلها من يد بيضاء . غشيت حبر الحبور والسرور ، وعوضت برد الظل من وهج الحرور ، خمائل وجداول ، تزاول منها العين ما تزاول . تلك يضل من احصاها ، وهذه يصل بها حصاها . ويا لقصرها السعيد ، نعمت ادواحه ، وهبت على خضر الغصون وزرق الغدران أرواحه . هذا وان بات السماح المفاض يسقيه ، والجود الفضفاض ينقع فؤاده ويشفيه وهنيئا للمسجد [1] الجامع ان رويت جوانحه الصادية ، وجمعت في شرعته السارية والغادية . فها هو حجره بادى الغور والاوضاح ، وصخره ينبجس بالزلال القراح . وللجمهور بصفوه المنساب ، لهج الغياب بالاياب ، وطرب الشيب لذكر الشباب . أمسوا قد سوغوا ماربهم ، وأضحوا قد علم كل أناس مشربهم . فهم يردون على العذب النمير ، ويجدون بركة رأى الامير . مكرمة ذخرها لسلطانه الزمان ، وكرامة هنأها به الايمان ، وقضية ان حجبت عن داود [2] فما حجب عنها سليمان.

---

(1) يقصد المسجد الجامع بمدينة تونس وقد ادخلت اليه المياه للمتوضئين .

(2) يقصد بداود هنا والد السلطان ، وسليمان السلطان نفسه ، وهى =

جمعت الناس بين الري والشبع ... فهم بأخصب مصطاف ومرتبع

ولم تدع كرما الا أتيت به ... تضيف مبتدعا منها لمبتدع

لما وليت خلعت الخير أجمعه ... عليهم ، فبدوا فى اجمل الخلع

لله أيامك استوفت محاسنها ... فلا فضيلة للاعياد والجمع

دامت مساعيك والاقدار تسعدها ... تولى المساجد[1] انصافا من البيع

اللهم ان الايالة الحفصية قد اعليت مظاهرها، ونصرت معاشرها، وقصرت على المصالح الدينية والدنيوية مواردها ومصادرها . ثم اصطفيت من شرف بيتها الصراح ، ومعدن سوددها الوضاح ، مولانا الامير الاجل ، المؤيد المبارك ، أبا عبد الله ، فانتضيته حساما فى يدك قائمه ، وارتضيته اماما لاتلين فى ذاتك صرائمه ، ولا يلحق شأوه فى النيل من عداتك رائمه . يمضى بأسا حين لامضاء للحسام المغضب ، ويهمى جودا والسماء فى أزر من نجيع الجدب ، وينتدب سعيا لكل حسنى أعيت على القريع الندب .

= تورية مأخوذة من قوله تعالى : « ففهمناها سليمان »

(1) اشارة الى تسجيع الصلاة وانتصاره على المسيحيين فى صقلية وسواحل افريقية .

فاقصد اللهم لسلطانه بتأبيد التأييد ، وأدم بأيامه المباركة نعمة التمهيد ، وضاعف عزة جانبه باعزازه كلمة التوحيد . واجزه اللهم افضل الجزاء ، عن افاضة النعماء ، وانارة الظلماء ، وكافئه عن نقع الغلل والاظماء ، بما فجر من ينابيع الماء ، وكما شرفت فعله فى الافعال ، واسمه فى الاسماء . فاجعله فى الدنيا داعيا الى سبيلك ، وفى الاخرى هاديا الى حوض رسولك . صلى الله عليه وسلم ، الذى آتيته بعدد نجوم السماء .

آمين آمين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وله يخاطب رئيس منورقة سعيد بن حكم القرشى :

ان سعيد بن حكم ... صنو العلا نجل الكرم
رآسة بمثلها ... يفاخر السيف القلم
وسودد مجموعة ... فيه محاسن الشيم
معتمد من شأنه ... رعى العهود والذمم
فاتحنى ممهداً ... الى جوابه القلم
عادة ندب أروع ... خص ببره وعم
فشكره فى كل حا ... ل ومآل ملتزم

حيا الحيا حضرتـــــه وجادها ثـر الديـــــم

اقتضبتها ايها السيد الاعظم ، والسند الاعصم . ابقاه الله وجنابه محفود ، ومقامه محمود ، وحزبه مودود ، ومشربه مورود ، ورواق السعادة والنضرة المفادة ، فوقه ممدود . من دانية كلاها الله تعالى . والوقت مضايق والرعب ملازم لايفارق. وانا بسيادته الاصيلة دائم الاعتداد ، وعلى عنايته الجميلة قاصر الاعتماد . والله يبقيه كاسمه سعيدا ، ويسميه مبدئا فى المعلوات ومعيدا ، بمنه .

وصلنى وصل الله حراسته ، وكلأ من الغير والغيل رياسته ، مخاطبته الكريمة الخطيرة ، مشرفة بالسؤال عن خاص الاحوال ومنيفة بما تضمنت من الاعتناء ، والبر المتوافر الاجزاء ، على الامانى البعيدة والآمال . فلثمت سطورها قياما بحقه الاكبر ، ولزمت من شكره مالا اقصر عنه بمشيئة الله تعالى ولا أقصر . وكان الظن بناديه الاشرف جميلا فقد عاد يقينا ، والامل فيه متينا فعاد مبينا . ويعلم الله سبحانه أنى أعطر بذكره الامكنة ، وأزكى بشكره الازمنة ، وبودى لو ركبت ثبج هذا البحر حتى

أوفيه بعض واجبه ، وأشافهه بما أجنح اليه ، وانطوى عليه، من اعتماد جانبه، واحماد مقاده فى الرياسة ومذاهبه. وقد حملت فلانا ـ عصمه الله ويسر مرامه ، وادام حفظه واكرامه ـ من جمل الاعظام ما يؤديه مفسرا ، وافهمته انى كاتبت معتقدا خالصا ومضمرا . وان تفضل سيدى الاعلى ـ حرسه الله ـ بتكليف بعض اغراضه الكريمة شفع يده البيضاء بمثلها ، واستزاد معلوة لم ينزل من اهلها. وما يصدر عن الجناب الرياسى ـ اسماه الله ـ من الالتفات اليه ، والاعتماد عليه ، فانه معدود من بره الجسيم ، ويد من ياديه التى أعيت على التعديد والتقسيم . والله يعلى محله ، ويسعد عقده وحله ، ويسوغه من مورد الاسعاد فى حالتى الاصدار والايراد ، أعلاه وأجله ، ويصل حراسته ، ويؤيد رياسته ، بمنه وكرمه .

والسلام الكريم ، المبارك العميم ، يخص به مقامه الاظهر ، ملتزم اكباره واجلاله ، المعتد بتمامه فى السيادة وكماله ، محمد بن عبد الله بن ابى بكر بن الابار ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكتب اليه ايضا شافعا ومعتنيا:

تعتمد رياستكم المؤملة ، وسيادتكم المؤثلة ، تحية الشاكر لا عتنائها ، المباهى بسناها الوضاح وسنائها ، المستديم للاحرار ، الممتطى اليها اثباج [1] البحار ، شرف عنائها وكرم غنائها ، محمد بن الابار ، ولا مزيد على ما عنده من اعظام يؤدى وظائفه ، واعتداد يشفع [2] بتالده طارفه ، وثناء يعاطيه اولياء جلالكم ومعارفه . والله يصعد مكانكم ، ويسعد زمانكم ، بمنه وكرمه .

وتتأدى الى رياستكم - حفظها الله - فى جانب أبى فلان - أعزه الله وبلغه أبعد أمله وأقصاه - . وهو من علمتم مكان بيته النبيه من حيه ، وسبب نزوحه عن وطنه المحبب ونأيه ، واستحقاقه بالمزايا المعلومة ، والسجايا الكريمة ، لاجزال حفظه ورعيه . وما زال لكمالكم واصفا ، وعلى تعظيم جانبكم والافصاح بواجبكم عاكفا ، امضاء لما أكد بينكم وبينه سالف الايام ، وتمييزا بحفظ الود الذى لا يحفظه غير الكرام .

ومن مطالبى له حمله من التكرمة والتقدمة على النهج

---

(1) متون البحار وامواجه المرتفعة .

(2) يشفع هنا معناها يتبع اى يتبع طارفه تالده الذى سبقه .

الاقوم، وانزاله جلالكم، هنا وهنالكم، منزلة المحب المكرم، وتوصية المخصوص بالسفارة فى اشغالكم المباركة، بأن يستصحبه عند الاياب، ويورده محفوظ الجناب على ذلكم الجناب، واختصاصه مع ذلكم بمخاطبة كريمة، ترفعه مكانا عليا، ويكون لما يرد عليه، ويخلص بمشيئة الله اليه، عنوانا جليا، ومجدكم - حرسه الله - يغتفر جناية الاذلال، ويبلغ نهاية الآمال. والله يبقى رياستكم تجبر الكسير، وتيسر المرام العسير. وهو سبحانه يؤيد مقامكم، ويكافى انعامكم، بمنه.

والسلام الكريم، المبارك العميم، يعتمد محلكم الرياسى، بدءاً وعوداً، ورحمة الله تعالى وبركاته.

تهنئته ابا المطرف [1] بن عميرة بقضاء شاطبة:

---

(1) قال ابن الابار فى تحفة القادم فى حق ابى المطرف.

فائدة هذه المائة. والواحد يفى بالفئة، الذى اعترف باثماره الجميع واتصف بالابداع فما ذا يتصف به البديع (يريد بديع الزمان). ومعاذ الله ان احابيه بالتقديم، لما له من حق التعليم. كيف وسبقه الاشهر. ونطقه الياقوت والجوهر. تحلت به الصحائف والمهارق، وما تخلت عنه المغارب والمشارق. فحسبى انى أجهد فى اوصافه. ثم اشهد بعدم انصافه، هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره، وتناوب المنثور والمنظوم على شكره.

(الصفحة رقم 5 الجزء الثالث من نفح الطيب طبعة دار المامون)

وكتب يهنىء الفقيه الاجل القاضى ابا المطرف بن عميرة بولايته قضاء شاطبة :

بأى بنان أم بأى بيان ... تخط وتملى شكرها الملوان

لولاية عقد لواءها الوجوب ، وأسفر وجه محاسنها المحجوب . فأشرق لألاء محياها ، وتعاطى الاولياء حُمياها . فما شئت من جذلان يحبّر شكرا ، ونشوان يجهر سكرا ، يترنم كالشادى الباغم ، ويترنح كالغصن الناعم . وكلا ـ أصلح الله قاضينا الاعلى ـ لا نكر ، على من يصف حالة السكر ، وان تناهى طربا ، وقضى من رفعته الاناة أربا . فالمرتاح لا يتماسك ولا يتمالك ، والارتياح لا يهلك أحداً على راحه يتهالك . لاجرم انه تسمو به الجدود ، وتدرأ عنه بالشبهات الحدود . ويأيها المولى اشرف الخطط ، الضيق عن عادي جلاله ، وخالدي (1) خلاله ، ارحب الخطط .

ما نبأ تهاداه النجد والغور ، واقتسم الحياة والموت به العدل

---

(1) يشير بعبارة «وخالدى خلاله» الى ان ابا المطرف من ولد خالد ابن الوليد رضى الله عنه .

والجور سوغ المجد المنيف نطافه (1) ، وهز له الدين الحنيف أعطافه ، حين قر الحكم الشرعي فى نصابه ، وشفي من آلامه وأوصابه ، وأرغم المناصب لذلك بنصبه وانتصابه . وسر معلم العلم فأساريره متهللة ، وسل حسام الحق ، فابطال الباطل متسللة وأشرع سنان الشرع . فكل معتد بالجهالة معتدل ، وهب نسيم المهابة ، فكل معتز للسفاهة معتزل . أما وخطة خطبت منك اكفى أكفائها ، وأقرت عين الهدى بتعيينها اك وهدائها . لقد عصبت بقاض يسمى القوم ويسعد ، ونيطت بماض ينهض فى ذات الله وينهد (2) ولا عجب أن آثرت جلاله ، واعتمدت خلاله فلم تك تصلح الا له . فهنيئا لها ما أنبست من شرف خالد ، وأن حرست باقلام بن سيف الله خالد . ويالبلدة وطىء تربتها ، وبوىء رتبتها . ما اخصب عيشتها وارغدها ، واسعد يومها وغدها ! وما ذا بها من دين ودنيا ، ومجد وعليا ،

---

(1) النطاف : العرق اى منح نطافه (عرقه) المجد المنيف .

(2) أى ينشط ويقوى .

اذ جمعت المهاجرين [1] الى الانصار ، وأطلعت محامدها ومحاسنها ملء الاسماع والابصار . لا زالت حوزتها تحوز الاكابر ، وامرتها تعز عزتها المكابر . ودام عمادنا المفضل ، وعهادنا المخضل [2] ، بين ولى شاكر حامد ، وعدو كاشر حاقد ، ينزل الرتب المنيفة ، ويطول به مالك ابا حنيفة ، والله ينهضه بما تقلد ، ويخلد مجده الاولى بأن يخلد .

والسلام الاتم الاكمل يخصه كثيرا ، ورحمة الله تعالى وبركاته.

وكتب - رحمه الله - الى رئيس شاطبة ابى الحسين ابن عيسى شافعا فى فك اسير ، وتيسير عسير :

كتبته الى سيدى ، حرس الله شرفه العبادى ، وكلأ كنفه السيادى . ولا مزيد على ما عندى من الاعظام لرفيع جانبه ، والقيام بكبير واجبه . والله يحفظ شرف بيته العتيق ، وحديث قديمه الفائت بطيبه المسك الفتيت [3] الفتيق ، ومؤديه فلان

---

(1) يقصد بالمهاجرين المسلمين الذين هاجروا من بعض المدن الاسلامية التى استولى عليها الروم . والانصار من اهل شاطبة .

(2) الندى الكريم .

(3) القوى الرائحة الاصيل الجيد .

ادام الله حفظه وعصمته ، وأتم عليه احسانه ونعمته . والمذكور يمت اليكم بقديم الاخلاص، ويرغب ان ينظم لديكم فى أهل الاختصاص . وقد بلغكم ما نابه من غير الدهر ونوبه . وكيف نشب فى حبالة الاسر الذى اتى على نشبه[1] وعلمكم بنباهة بيته أغنى عن التنبيه عليه ، وفضلكم كفيل بتسبيب الاحسان اليه . وقد وثق بسعيكم الكريم فى جبر كسره ، وأمل سيادتكم التهمم بأمره ، والتصريف فيما يصرف عليه بعض ما بذل فى خلاصه من أسره . ومثلكم اصطنع امثاله ، وآثر فيما يليق بنباهته استعماله . والله يعلى شأنكم، ويحرس مكانكم، والسلام.

وكتب ايضا شافعا بما نصه :

تلك السجايا العذاب ، والكرم اللُّباب، والساحة التى البسها جدته الشباب ، مخصوصة بتحية التوقير والتكبير ، المعبرة انفاسها السبقة عن العبير . ومنهيها من زان قومه الامر والنهي ، وحسم قضاؤهم وعطاؤهم الوهن والوهى، فلان ، جمع الله له بين الاوطار والاوطان، وأعاده الى عادته من عزة

---

(1) النشب : المال .

الجوانب وشدة الاركان. وهو كريمة كرام ، آمت (1) بعدهم الايام ، وشكا فقدهم الانام . ولبست الحداد عليهم الاسياف الحداد والاقلام . وما بانوا ولا بادوا الا وأياديهم أطواق فى الرقاب ، وتشريفهم باق فى الاعقاب على مر الاحقاب .

وهذا فلان عرفه الله اسعاد الاقدار ، وأعفى مشاربه ومشارعه من الاكدار ، يروق وقاره ، ويكرم (2) سباره ، وعينه فراره (3) . وادنى حلاد الطلب ، وبعض خصائصه الادب . ثم شأنه الاخطر شانه ، ومكانه من حيه الذى يتقدم الاحياء مكانه ، ورأى عند أخذه فى النقلة ، وعزمه على الرحلة ، أن يستصحب الى مجدكم هذه الحروف ، ويستدفع بمعلوم جدكم الصروف . وان تأملتم ما اليه من سمت (4) وسيما ، أقبلتموه وجه الاقبال وسيما ، وأوليتموه من رعى الحق الواجب ، ما يراه ضرباؤكم ضربة لازب . والله يبقيكم للمكارم تشيدون رسومها الدائرة ،

---

(1) آمت المرأة فقدت بعلها ، وآم الرجل فقد زوجه .

(2) اختباره

(3) اختباره أيضا من : فرالدابة كشف عن اسنانها ليرى كم بلغت من السنين.

(4) يريد الحالة التى هوعليها زيه: وهيأته وملامح وجهه .

وتنظمون عقودها المتناثرة . وهو تعالى يكلأ محلكم الرحيب ، ولا يعدمكم من الزمان وأهله الترجيب (1) والترحيب. والسلام.

لم يكن ابن الابار بدعا من كتاب الاندلس الذين عاصروه او سبقوه بنحو قرن او جاءوا بعده . فقد كان اسلوب النثر الانشائى فى ذلك العهد قد اخذ بالاندلس طابعا خاصا تميز به ، هو اسلوب السجع والصناعة اللفظية . ذلك الاسلوب الذى انتقل الى المغرب والاندلس من المشرق ، والذى عرف به الحريرى ، وابن العميد ، والقاضى الفاضل .

نعم : لم يكن اسلوب النثر كذلك فى أول عهد المسلمين باسبانيا ، بل كان سهلا منطلقا تسيطر عليه الفكرة التى تقود العبارة وتكيفها : دون تكلف او صناعة ، وان جاء مسجوعا فسجع غير متكلف . ونماذج هذا خطبة طارق بن زياد (2)

---

(1) التعظيم .

(2) هؤلاء نشئوا وتثقفوا فى المشرق العربى . وجاءوا معهم بثقافتهم الادبية وكانوا كذلك يمثلون العصر الادبى السائد فى ذلك الوقت . ومن نشأ منهم بالاندلس كان على حالة وثيقة بالحياة الادبية بالمشرق ، على ان الحياة الادبية بالمشرق اثرت تأثيرا مباشرا فى الادب بالمغرب والاندلس وكانت الصلة بين الادبين قوية .

وكتب الامراء من بنى امية ايام حكمهم .

وكان ابن الابار رجل جد ، صنعته الحياة التى احاطت به على غرارها. فهو قد ولد وعاش الشطر الاول من حياته [1] فى بلنسية ، وفى وقت كانت الارزاء والكوارث تحيط بالبلاد ، ولم يكن ثمة مجال للهو او الترف او العبث الفني. لذلك تشكلت روح ابن الابار الادبية بالصورة التى املتها ضروريات الحياة : الحياة الاجتماعية ، والسياسية والدينية والاخوانية . فصار اذاً كاتب الديوان الذى يكسب منه معاشه ، وكان يكتب الى الامراء والاخوان فى أمور جد ، وسفارة هامة تتصل بمصير البلاد والعباد . لذلك لاغرابة ان لم يطرق ابن الابار فى كتاباته النثرية من الموضوعات ما طرقه غيره من كتاب الاندلس كابن الطفيل مؤلف رسالة « حي من يقظان » القصصية الخيالية الفلسفية. وكأبى عامر بن شهيد مؤلف رسالة « التوابع والزوابع » وغيرها من الرسائل التى تتناول الفكاهة والهزل ، وابن برد

---

(1) ولم يكن الشطر الثانى من حياته اكثر رخاء أو معينا على اللهو والعبث والترف .

الاصغر مؤلف «المناظرة بين السيف والقلم»، وابى بحر صفوان ابن ادريس مؤلف «المناظرة بين بلدان الاندلس»، وابى حفص عمر بن الشهيد مؤلف الرسائل الخيالية على ألسنة الحيوان.

واذاً فلنقبل ابن الابار على انه رجل صنعته الظروف الزمانية والمكانية التى عاش فيهما، وجعلت منه كاتبا واقعياً جاداً، لا يتناول من الموضوعات الخيالية ما لم يتسع له وقته المزدحم بوقائع الحياة القاسية وحوادثها، ولا يسمح به عقله الذى ألف مواجهة الحقيقة، ومعالجتها فى حزم وحكمة، ولا تخوله اياه تربيته الدينية المتزنة الفاضلة. وهو لا يتناول كذلك من موضوعات الهزل والعبث ما تناوله غيره من الكتاب، لان ظروفه المكانية والزمانية، ووقته، وعقله، وتربيته الدينية: كل هذه لا تسمح بالهزل او العبث.

فنحن اذاً نجد فى كتابات ابن الابار: من الرسائل الديوانية والاخوانية، صورة لما يجب ان يكون عليه. انه رجل جد وعمل وكفاح، فلا بد ان يكتب فى موضوعات تناسب هذه الخصائص وهو رجل خير وشفاعة فى عهد احتاج فيه الناس الى الخير

والشفاعة، فهو يكتب فى مثل هذه الموضوعات. وهو لا يتناول من الموضوعات العابث او اللاهي لانه لم يكن كغيره من الكتاب عابثا او لاهيا ، ولم تهيئه الحياة لهذا النوع من الحياة .

وهو يكتب بأسلوب من النثر ساد جميع أساليب الكتاب قبله وبعده، هو اسلوب السجع الشبيه بالشعر المنثور، أسلوب تختار فيه الكلمة لجرسها وايقاعها ومحاسنها اللفظية ، أسلوب يعتمد على تكرار العبارات والجمل للدلالة على الفكرة الواحدة، أسلوب يميل الى الاطناب لتأكيد المعنى، ولما فى الاطناب من دلالة على قدرة الكاتب اللغوية والادبية ، أسلوب كثر فيه الاقتباس من القرآن والحديث والحكم والامثال والشعر، تأكيداً للفكرة ، وتحلية (1) وتجميلا . وقد يضمن الكاتب الرسالة احيانا شعراً من نظمه هو .

وكانت رسائل ابن الابار - كغيرها من رسائل كتاب

---

(1) لم تكد تخلو رسالة نثرية من الاقتباس الشعرى، حتى سرت عدوى الوزن والقافية الى النثر، وانتشرت طريقة السجع فى جميع المكاتبات وهى محلاة بابيات من الشعر، حتى فى الكتابة العلمية ومكاتبات الحكومة واجازات السفر (انظر Poesi und Kunst der Araber, von Schack)

الاندلس - تبدأ بمقدمة تمهد للموضوع، فيها تحية اوتلميح بمقام المكتوب اليه وصلته بالكاتب، وتنتهى بالخاتمة التى تتضمن الدعاء وتشعر بانتهاء الرسالة . نعم : كان الكتاب يختلفون من حيث قوة الفكرة وضعفها، وطلاقة النثر المسجوع وتعثره، ومن الاقتباس وقبحه، وانسجام الالفاظ المختارة واضطرابها. ولكنهم بالرغم من هذا كانوا - كما يقول بعض النقاد - «سائرين فى طريق واحد، متشابه الارجاء والنواحى، يضربون على وتر واحد، من حيث الكلام فى الموضوعات المعروفة لهم . ولم يكن لاحد فضل فى كتابته غير الانفراد بالاسلوب واختيار الالفاظ واتباع الطريق (1) اقتفاء لآثار غيره» .

ويقول هذا الناقد : ولقد يخيل ان الكتاب فى ذلك العصر كان يحاكى بعضهم بعضا، وان الصفات التى تظهر فيها ميزة الكاتب هى الاحاطة باللغة وتنسيق الالفاظ والافتنان فى اخفاء ابتذال الموضوعات والمعانى المعروفة تحت ستار من الصناعة ولكن أليس من البراعة ان يشبه الكاتب جميع الكتاب، ويعرف

---

(1) صفحة 179 من بلاغة العرب فى الاندلس لاحمد ضيف.

كيف يمتاز عنهم بمعانيه وأسلوبه ؟

والحق ان ابن الابار بالرغم من سلوكه طريق غيره فى الكتابة كان يتميز بعدم الاغراق فى اخفاء الفكرة ، او الاغراب فى اللفظ . نجد هذا واضحا اذا قارنا رسالته التى وجهها الى القاضى ابى المطرف ابن عميرة برسالة هذا الاخير اليه ، او برسالة لابن خفاجة - وهو قد عاش قبله بنحو قرن - كتبها معاتبا احد اخوانه على ما وقع بينهما من قطيعة . وكان ان ولي ذلك الصديق حصنا فخاطبه ابو اسحاق (1) ابراهيم ابن خفاجة بقوله :

« أطال الله بقاء سيدى النبيهة أوصافه النزيهة عن الاستثناء ، المرفوعة امارته الكريمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يرمى للجزم ، واعتلت واو يغزو لوضع الضم . كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال . والله يجعل هاتيك من الاحوال الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة . وانا استنهض طولك الى تجديد

(1) صفحة 352 من الجزء الاول من نفح الطيب ، طبعة أوربا .

عهدك بمطالعة ألف الوصل، وتعدية فعل الفصل، والى عدولك عن باب الف القطع، الى باب الوصل والجمع، حتى تسقط ادرج الكلام بيننا هاء السكت، ويدخل الانتقال حال الصمت . فلا تتخيل - اعزك الله - أن رسم اخائك عندى قد درس عفاء، ولا ان صدر دارمية امسى من ودك خلاء، وانما انا فعل اذا ثنى ظهر من ضمير وده ما بطن، وبدا منه ما كمن . . . . الخ،

فمن يتصور ان ابن خفاجة الشاعر الرقيق، الحساس بالجمال، الوصاف الدقيق الوصف يكتب مثل هذه الرسالة المثقلة بالتوريات النحوية والصرفية والاشارات اللغوية والادبية المصطنعة؟ نعم حاول ابن خفاجة وغيره من الكتاب هذا الضرب من النثر الموضوع المتكلف وزاولوه، ولكنا لم نعثر لابن الابار على شيء من هذا فهو متزن فى اسلوبه، وسط بين كتاب عصره، لا سرف ولا اسراف، يلتزم السجع ولكن فى غير اقحام، والتورية ولكن دون تعمية . وها هى ذى نبذة من كتاباته العلمية (1)،

---

(1) من كتاب الحلة السيراء كما نشره ميللر فى مجلة:
Beitrage zur Geschichte der westlichen Araber صفحة 338

فهو يقول :

« ولكن فى هذه المائة الاخيرة (يعنى السابعة) أدرك مرامهم الروم فى الجزيرة . واستحكمت امارتهم لها بحكم الفتنة المبيرة ، حتى ملكوها وجزائرها بين الصلح والعنوة ، وغاية اهلها الى هذه الغاية ان يتساقطوا على العدوة . وكل منهم مفات بجريمة الذقن ، ومسلم لعدوه الكافر محبوب الوطن . كم تركوا من جنات يدوسون غلالها ، وديار يجوسون خلالها . وعيون يفجر تغويرها العيون دماً ، وزروع ما عدا وجودها ان عاد عدما ، ثم لا انتصار بغير العبرات ، ولا اقتصار الا على الزفرات ، والحسرات . ولم يبق الآن الا اشبيلية ام القواعد والمدائن ، ومأم الركائب والسفائن . وقد اشفت على الذهاب واستوفت على ... فى حسن المصابرة . ورزؤها خاتم الارزاء ، وثكلها الدافع فى صدر العزاء ، نعوذ بالله من باسه وتنكيله ، ونعود الى (1) ما كنا بسبيله . »

وبعد فمن الممكن القول - بعد ما عرضنا له من نماذج

---

(1) يقصد انه يعود الى استئناف ما كان يكتبه من تراجم فى الحلة السيراء .

لرسائل ابن الابار ومن اشارات الى حال النثر فى عصره - بان ابن الابار الكاتب نهج فى اسلوبه منهج كتاب الاندلس من حيث السجع ، وتحكم الكلمة فى الفكرة ، واختيار الكلمة لجرسها ومناسبتها فى الجملة ، ومن تكرار العبارة المؤدية للفكرة الواحدة ، ومن حيث التورية وان كانت توريانه سهلة الادراك واضحة الاشارة . وانه لم يغال فى الصناعة اللفظية فيسرف فى التورية العلمية ، كما فعل ابن خفاجة مثلا ، ولم يبالغ فى الاطناب فيجعل رسائله مملة ، كما فعل لسان الدين (1) بن الخطيب مثلا فى بعض رسائله .

وقد اخذت رسائله الغالب المألوف ، من البدء عادة بمقدمة ، والانتهاء بخاتمة تشعر بنهاية الرسالة .

أما موضوعات رسائله فكانت واقعية خالية من الخيال الابتكارى الحر ، بعيدة عن اللهو والعبث ومجون الحياة التارفة . ولم يتناول ابن الابار من الموضوعات القصص او الوصف

---

(1) انظر الجزءين الثالث والرابع من نفح الطيب ففيهما الكثير من رسائله .

- وصف الطبيعة ومظاهر الحياة - لان حياته المهنية والعلمية لم تؤهله لذلك .

هذا ولم يصلنا من رسائل ابن الابار الديوانية والاخوانية الكثيرة التى كتبها بالاندلس ... وبتونس ايضا - ما يجعلنا نتوسع فى دراستها ، ونتلمس خصائصها التى قد تميزها عن غيرها من رسائل عصره بمزايا لم نكشفها بعد .